السمياء التأويلية

مدخل إلى سيموطيقا شارل ساندرس بورس

أ. وداد بن عافية

يهدف هذا المقال إلى التعريف بواحد من أشهر وأهم وأعقد الإتجاه ـات السميائية المعاصرة، ألا و هو الإتجاه الأمريكي " لشارل ساندرس بورس " مؤسس السمياء التأويلية انطلاقا من خلفية فلسفية تتمثل في "نظرية المقولات" التي استند عليها في تعريف العلامة مبينا آلية إنتاجها للدلالة بواسطة سلسلة من الإحالات السميوزيسية ، مبرزا أنواع العلا مات وآليات اشتغالها لإنتاج الدلالة و تداولها.

كما تعرض المقال إلى السمياء التأويلية كمنهج إجرائي لمقاربة النصوص الأدبية واستنطاق مكامنها، بالوقوف عند مفهوم المؤول الديناميكي الذي يفتح باب التأويل على مصراعيه، مع إبراز الفرق بين التأويل السميائي والتأيل التفكيكي الذي يقترن بالعبثية عند "جاك دريدا"، دون إغفال لدور القارئ في العملية التأويلية الذي لم يوله "بورس " أي اهتمام بينما أسند إليه "أمبرتو إيكو" أهمية كبرى من خلال استعماله لمصطلح "التخمين".

Le résumé

Ce discour vise à présenter l'un des plus, connu, impertant et compliqué tendence de la sémiotique modèrne, c'est la tendence americaine de « Charles senderce peirce » le fondateur de la « semiotique interprétative à partir d'un référence philosophique qui se présente dans « L'hypothèse des énoncés » sur laquelle il s'est basé pour définir le signe mettont en valeur sa production de la signification à l'aide d'une série d'interprétation sémiotique montrant les types de signe et les mécanismes de son travail qui mène à sa signification et son utilisation .

Aussi, ce discour montre la sémiotique interprétative comme une methode de procédure pour aborder les textes littéraires et tirer leur sens. En s'arrètant à la défintion de « L'interprétation dynamique » qui ouvre la porte à l'interprétation sur tout ses aspects en montrant la déférence entre « L'interprétation sémiotique » et le « déchifrage » qui se lie à l'arbitraire chez « Jack drido » sons ignorer le role du l'ecteur dans l'activité de l'interprétation que pierce n'a accordé aucune importance à l'encontre de « Ambrito Ico » à travers son utilisation au terme de « refléxion »

إن لاكتشاف الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر ميلادي بالغ الأثر في طغيان البصر على الحياة الثقافية على حساب المشافهة والصوت ، وقد تعددت مجالات اشتغال السميوطبقا في الحقل البصري ما بين الأنساق العلاماتية الثابتة والأنساق البصرية المتحركة ووسائل الإعلام التي خ صها "مارشال ماك لوهان " بدراسة وافية ، والنسق اللغوي التقصيدي البصري الذي تبنى بلاغة جديدة أساسها إحداث فوضى على مستوى البياض

والسواد، وعلامات الترقيم ، والانزياح إلى أعلى الصفحة أو أسفلها تارة وإلى يمينها أو يسارها طورا، في تنظيم طباعي جديد ، مشكلة فضاءا سيميائيا قابلا للتأويل الدلالي.

تعد سميوطيقا الأمريكي" شارل ساندرس بورس" أفضل نموذج لدراسة الخطابات البصرية في بحثها عن كيفية تشكل المعنى عبر سيرورة تدليلية متنامية.

إن الكون من المنظور البورسي علامة كبرى تحوي عدد لا نهائيا من العلامات ولا يمكن للإنسان أن يدرك الأشياء من حوله أو أن يتعامل بها إلا على أنها علامات ، ولفهم العالم لابد من فهم العلامات في حد ذاتها وهو ما لا يتأتى- حسب بورس- إلا من خلال مبدأ ثلاثي يمثل الآليات المنتجة للإدراك والفهم والتواصل الإنساني.

I- نظرية المقولات:

هي الخلفية الفلسفية التي استند إليها بورس لتعريف العلامة، فالإنسان لا يمكنه أن يدرك الكون دفعة واحدة بل يتم ذلك عبر مستويات أو عبر إحالات جزئية تتمثل فيما يلي:

1- الأولانية : يقصد بها وجود الشيء في ذاته ككينونة ، بعيدا عن أي سياق أو تحقق أو علاقة مع شيء أخر، وتحيل على "الوجود النوعي الموضوعي" حسب بورس الذي يعرفها بأنها "نمط في الوجود يتحدد في كون شيء ما هو كما هو إيجابيا دون اعتبار لشيء آخر ، ولا يمكن أن يكون هذا الشيء إلا إمكانا "[1] كالأحاسيس: الحزن، الفرح، الألم، والنوعيات، الأملس، الخشن، المائل ، المستقيم، الأبيض ، الأزرق.

2- الثانيانية: هي إدخال الشيء في وقائع محددة ضمن سياق ما ليخرج من دائرة الإمكان إلى دائرة التحقق والوجود الفعلي ضمن شروط زمانية ومكانية معينة . ومن دائرة الإطلاق واللامحدودية ومن الغموض والإبهام إلى الجلاء والوضوح ومن مجرد أحاسيس إلى أحداث واقعية.

3- الثالثانية: ه ي القاعدة أو القانون، إذ لا يمكننا أن نفهم الكون إلا إذا أفرغ في قوالب رمزية ليدرك في شكل مفاهيم ، فعملية القولبة تقوم مقام الوسيط بين الإنسان والكون، وهو ما يتحقق من خلال الدين والأسطورة والخرافة واللغة ، التي تمكننا من إدراك الأشياء وتضبط علاقتنا مع العالم الخارجي.

لا يمكن للعلامات الكونية ككينونة أن تكون دالة وأن يتواصل الإنسان معها كثانيانية، إلا من خلال وسائط هي اللغة والأسطورة والدين التي تصبها في قوالب في شكل مفاهيم وتلك هي الثالثانية التي تشكل القاعدة أو القانون وهي بمثابة الجسر الذي يسمح بالمرور من الممكن إلى الواقعي.

II- مفهوم العلامة:

لا ينفصل تعريف بورس للعلامة عن المقالات الثلاثة السابقة، فهي تحوي داخلها : الإمكان والتحقق والقانون،ومن ثم فهي من طبيعة ثلاثية تتكون من الماثول (Representame) والموضوع (Objet) والمؤول (Interprétant) ولا يمكنها أن تكون دالة إلا عبر سلسلة من الإحالات بين عناصرها الثلاث، فالماثول يحيل على الموضوع عبر فعل التوسط الإلزامي الذي

يقوم به المؤول. وتعرف سلسلة الإحالات التي تؤدي إلى إنتاج الدلالة بالسميوز (Sémiose) . يمكن أن نمثل للعلامة بالمفهوم البورسي بالتريسمة التالية:

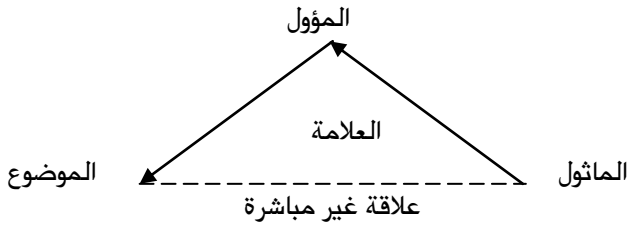

يشير الخط المتقطع أسفل المثلث إلى عدم وجود علاقة مباشرة بين الماثول والموضوع، فلا بد من المرور عبر الوسيط الإلزامي المعروف بالمؤول لتتحقق الدلالة ويمكن أن نمثل لذلك بلفظة "الوردة" باعتبارها ماثولا يحيل على موضوع وهي الوردة كشيء متخيل (تصور ذهني) أو موجود في الطبيعة مؤول، وهي مجموع السمات الدلالية المشكلة للفظة "وردة" والتي نميزها عن سائر الأشياء الأخرى: نبات زهري له عطر وأوراق وأغصان شائكة ، كخصائص وصفات نميزها عن بقية الأشياء والنباتات الأخرى، فهي بمثابة القانون أو القاعدة الذي يضبط مفهوم الوردة.

01- الماثول: يعرفه بورس بقوله:"إن العلامة (أو الماثول) هي شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطورا . إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء موضوعها". يمكن ضبط خصائص الماثول من خلال هذا التعريف فيما يلي:

يقوم الماثول بوظيفة التمثيل لشيء دون أن يعرفنا به.

نتعرف على الماثول من خلال المؤول باعتباره علامة أكثر تطورا.

لا يمكن للماثول أن يحيل على موضوعه إلا من خلال المؤول.

إنه يقوم بنفس وظيفة الدال السوسيري – رغم ا ختلافهما – ، فكلاهما يمثل لشيء ما، فالماثول يمثل للمؤول والدال يمثل للمدلول.

02- الموضوع: هو ما يقوم الماثول بتمثيله مرورا بالمؤول ولتحديد معنى الموضوع لابد من مراعاة السياق الخاص الذي أدرج ضمنه، وهنا لابد من التمييز بين معرفتين؛ المعرفة المباشرة والمعرفة غير المباشرة.

أ- الموضوع المباشر: هو المعطى من خلال العلامة بشكل مباشر، في مثل : الشمس مشرقة، الموضوع المباشر هنا لا يتعدى ما تعطيه لنا الجملة من معرفة مباشرة لا تحتاج إلى كبير جهد لفهمها، وهي إسناد صفة الإشراق للشمس.

ب- الموضوع الديناميكي: هو المعنى البعيد الضمني المتعلق بالمعرفة الثقافية والدينية للمؤول، وهو في المثال السابق جملة الإحالات الدلالية التي تشير إليها لفظة الشمس كأن تكون دالة على النور أو الجمال والهداية أو المكانة أو اسم علم.

يمكن استثمار الموضوع الديناميكي في قراءة النص الأدبي بتجاوز بنيته السطحية إلى البنية العميقة والحفر في طبقاتها للوصول إلى المعنى الضمني المستتر.

03- المؤول: هو الوسيط الإلزامي الذي يمثل حلقة وصل بين الماثول والموضوع، إنه بمثابة القانون الذي يميز الأشياء عن بعضها البعض ويمنع تمازجها من خلال تحديد السمات الدلالية الضابطة لمفهوم شيء ما، وهي شبيهة بالمدلول السوسيري، فكلاهما فكرة أو مفهوم بموجبه تتم الإحالة من الماثول إلى الموضوع. ولأنه لا يمكن إدراك واقعة ما دفعة واحدة بل يتم ذلك من خلال مستويات، إذ نتجاوز المعنى المباشر إلى دلالات أعمق عبر سيرورة تدليلية لا منتهية، فقد صنف بورس المؤولات إلى ثلاث:

أ- المؤول المباشر: هو المنوط بتحديد المعطيات الدلالية الأولية للعلامة، إنه بصيغة أخرى المعنى المباشر الذي يفهم من العلامة.

ب- المؤول الديناميكي: يتجاوز تقريرية المؤول المباشر إلى التأويل، فهو يدخل العلامة في سيرورة تدليلية غير منتهية، فالعلامة الواحدة تقبل أكثر من قراءة وأكثر من تأويل، والنتيجة أننا أمام سيرورة سميوزية لا متناهية، وهي التي يحتاجها المحلل السميائي للنصوص الأدبية في تأويله للعلامات النصية.

ج- المؤول النهائي: هو المنوط بإيقاف سيرورة المؤول الديناميكي عند دلالة ما داخل نسق معين "فداخل سيرورة تأويلية معينة يجنح الفعل التأويلي إلى تثبيت هذه السيرورة داخل نقطة معينة تعد أفقا نهائيا داخل مسار تأويلي يقود من تحديد معطيات دلالية أولية (مؤول مباشر) إلى إثارة سلسلة من الدلالات (مؤول ديناميكي) إلى تحديد نقطة إرساء دلالية (مؤول نهائي)"

إن المؤول النهائي ليس من طبيعة واحدة بالمنظور البورسي، لأن المؤول ينتج دلالات تختلف من غاية إلى أخرى، لذا قسمه إلى ثلاثة أنماط:

المؤول النهائي رقم 01: يشمل العرف والتقاليد والعادات، وهو مؤول لا يخضع للمراقبة أو المناقشة العلمية المنطقية، بل يندرج ضمن المسلمات الاجتماعية غير القابلة للجدال.

المؤول النهائي رقم 02: يخضع للمراقبة ويمكن التأكد من صحته أو عدمها، إنه يشكل المعرفة التي يستند إليها شخص ما في تخصص ما من أجل إصدار حكم أو إجراء تجربة.

المؤول النهائي رقم 03: يرتبط بالأحكام الفلسفية والنظريات المنطقية الكبرى.

تكمن مشروعية المؤول النهائي في كونه الكابح لسيرورة السميوز اللامتناهية التي يدعمها المؤول الديناميكي، إذ لابد من الرسو عند محطة تأويلية معينة، لأن الاستمرارية تحمل خطر الولوج إلى العبثية التفكيكية في لعبة تدليلية لا متناهية.

إن العلامة بالمفهوم البورسي ليست تشابها ولا تطابقا، فالموضوع ليس شيئا بل هو علامة يمكنها أن تحيل على علامات أخرى، "فالعلامة هي شيء من خلال التعرف عليه نعرف شيئا إضافيا"، وكل عنصر داخل العلامة قادر على الاشتغال كعلامة، أي قابل للتحول إلى ماثول يحيل على موضوع عبر مؤول، والمؤول هو علامة أكثر تطورا من الماثول سرعان ما تحيل بدورها على موضوع آخر عبر مؤول آخر وهكذا دواليك.

III- التوزيع الثلاثي للعلامة:

إن كل عنصر من عناصر العلامة الثلاث يقترب من بنيته الداخلية من بنية العلامة نفسها، ويمكن أن نتصور توزيعا فرعيا ثلاثيا لكل عنصر من عناصر العلامة خاضع لنظرية المقولات.

01- الماثول: يمكن النظر إليه كأولانية وكثانيانية وكثالثانية، أي كإمكان وتحقق وقانون، في الحالة الأولى يسمى علامة نوعية (Qualisigne)، وفي الحالة الثانية علامة مفردة (Sinsigne)، أما في الحالة الثالثة فيسمى علامة معيارية (Légisigne).

أ- العلامة النوعية: يمكن للأحاسيس والألوان والأصوات والهيئات أن تشتغل كعلامات نوعية دون ارتباطها بسياق ما أو شخص ما أو شيء معين، أو تجسدها في زمان ومكان معينين، فهي تدرك في أولانيتها كمعطى أول ممكن التحقق.

ب- العلامة المفردة: تتسم بالتحقق ضمن زم ان ومكان محددين، باندراجها ضمن واقعة محددة ضمن سياق ما لتصبح أحداثا واقعية، إنها تعني الوجود الفعلي للعلامة.

ج- العلامة المعيارية: كل الأشياء المتعارف عليها كقواعد وقوانين على مستوى الجماعة تعتبر علامة معيارية، وهي لا تتحقق إلا من خلال العلامة المفردة.

02- الموضوع: يمكن النظر إليه كأولانية و كثانيانية و كثالثانية، وذلك وفق ما إذا كانت علاقة الممثل بموضوعه تكمن في أن له بعض الخصائص في ذاته ففي هذه الحالة يشكل الموضوع أيقونا (Icon)، أما إذا كانت علاقة الممثل سببية مع موضوعه يشكل الموضوع أمارة(Index)، وفي حالة ما إذا كانت علاقة الممثل بموضوعه خاضعة للعرف الاجتماعي ينظر إلى الموضوع باعتباره رمزا(Symbole) .

تعتبر هذه الثلاثية منطلقا للدراسات التي أنجزت حول الصورة والسمياء البصرية، وهي الأكثر انتشارا من غيرها.

أ- الأيقون: (Icon) العلاقة بين الممثل والموضوع قائمة على التشابه، فالأيقونة هي الصورة المماثلة والمصغرة لشيء، كالصورة الفوتوغرافية والرسم الهندسي لبناء معماري والخريطة، حيث يشترك الماثول والموضوع في عناصرهما.

يميز بورس بين ثلاثة أنواع من الأيقونات:

الأيقون/ الصورة: العلاقة بين الماثول وموضوعه قائمة على التشا به، كالقلادة التي تحمل صورة مريم والمسيح.

الأيقون/ الرسم البياني: في هذه الحالة العلاقة بين الماثول و موضوعه يحكمها التناظر، كالرسم البياني لعمارة مثلا.

االأيقون/ الاستعارة: إنها أكثر الحالات تعقيدا و فيها تتم الإشارة إلى العناصر المشتركة بين الماثول و موضوعه، كدلالة اللؤلؤ على الدموع، في مثل قول الوأواء:

و استمطرت لؤلؤا من نرجس و سقت وردا و عضت على العناب بالبرد

لاشتراكهما في خصائص معينة: الشفافية و الانسيابية و الشكل الدائري.

ب- الأمارة: (Index) يعرفها بورس بقوله "علامة أو تمثيل يحيل على موضوعه لا م ن حيث وجود تشابه معه، ولا لأنه مرتبط بالخصائص العامة التي يملكها هذا الموضوع، ولكنه يقوم

بذلك لأنه مرتبط ارتباطا ديناميا (بما في ذلك الارتباط الفضائي) مع الموضوع الفردي من جهة، ومع المعنى أو ذاكرة الشخص الذي يشتغل عنده هذا الموضوع كعلامة من جهة ثانية"[]. يمكن أن نستخلص علاقة الماثول بالموضوع في شكل نقاط:

عدم وجود تشابه بينهما.

عدم اشتراكهما في نفس الخصائص.

يتحقق الماثول والموضوع في فضاء مكاني وزماني واحد لارتباطهما الديناميي.

ج- الرمز: (Symbole) يرتبط بالقانون والقاعدة اللذين يتحققان على مستوى الجماعة أو العرف الاجتماعي، مع عدم وجود علاقة مباشرة بين الماثول والموضوع سوى العرف الذي صاغ منهما قانونا وجعلهما متلازمين، بحيث يحيل ماثول ما على موضوع معين.

تعتبر هذه الثلاثية منطلقا للدراسات التي أنجزت حول الصورة والسمياء البصرية وهي الأكثر انتشارا من غيرها.

03- المؤول: يمكن تقسيمه وفق ثلاث ثلاثيات:

أ- الخبر: (rhème) أو المؤول الخبري، يوفر معلومات عامة، فهو يشير إلى العناصر الأولية التي تحتوي عليها العلامة، دون المرور بالعملية التأويلية، فهي معرفة مباشرة قريبة من مفهوم المدلول السوسيري الذي لا يتجاوز حدود تعيين مفهوم ذهني عام.

ب- التصديق: يتجاوز المعلومات الأولية الإخبارية، باندراج العلامة ضمن سياق معين.

ج- الحجة: هي فعل ذهني يحاول من خلاله الشخص إثبات صحة قضية ما. يمكن إيجاز هذه التعريفات في الشكل التالي:

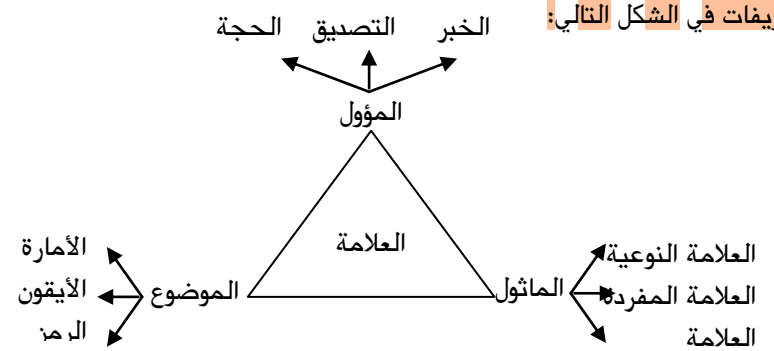

VI.- السميوتأويلية:

إن العلامة لا تقوم على الإستبدال ،بمعنى أنها لا تعوض شيئا أو تقوم مقامه، بل إن ماهيتها تتأسس على فعل الإحتمال و التأويل، فاللفظة الواحدة قابلة للتعدد القرائ ي، وتحيل على أشياء أخرى غير موضوعها المباشر، فلفظة "ثمرة" ترتبط بالشجرة، وتدل على الإخصاب والنمو والإنتاج، " فمعيار التأويل يسمح بالإنطلاق من علامة لقطع كامل دائرة توليد الدلالة المرحلة تلو الأخرى (...) ، عند هذا المستوى نرى إلى أي حد يكون الحكم على العلامة القائم على حجة المساواة والمشابهة والحد من الفوارق قابلا للنقاش .ويرجع هذا الحكم إلى

التشهير بالعلامة اللغوية البسيطة على أنها تعالق قائم على التكافؤ الخالي من المنافذ : استبدال مماثل بمماثل، بينما العلامة هي دائما ذلك الشيئ الذي يفتح على شيئ آخر، لا نجد مؤولا لا يحول أثناء توضيح العلامة التي يؤولها – ولو بصفة طفيفة- من حدودها "

تتأسس العلامة ككينونة على مبدأ الإحالات، فهي قائمة على سيرورة تدليلية لا منتهية، والسميوز يفتح باب التأويل على مصراعيه من خلال المؤول الديناميكي الذي يتجاوز المعنى المباشر إلى دلالات ضمنية متوارية، وهو ما يمكن أن نستثمره في قراءتنا للنص الأدبي الذي يحمل خاصية التعدد القرائي، "فبمجرد ما يتجسد الماثول – في صيغته المركبة كما هو الشأن مع النص - فإنه يكتسب استقلالية سميوزيسية، حينها قد تصبح قصدية المتلفظ غير ذات أهمية، قياسا لموضوع النص الذي نقوم بتأويله وفق القوانين السميوزية الثقافية القائمة"، ويصبح المؤلف حينها ضيفا يزور نصه كأي قارئ آخر، يبدي احتمالاته القرائية والتأويلية ثم ينصرف حسب – رولان بارت -.

إن الغاية من الحركة الديناميكة اللامتناهية أو من السيرورة السميوزية المندفعة دون توقف، من خلال سلسلة الإحالات المنفكة من عقال المعنى النهائي هي إنتاج أكبر قدر من اللذة، واللذة هي الإحالات نفسها.

ولئلا تبدو تأويلية بوؤس غير محدودة أوجد نمطا ثالثا من المؤولات، وهو المؤول النهائي الذي يعتبره محطة نهائية داخل سيرورة التأويل، وهو المنوط بإرساء السيرورة التأويلية على محطة تدليلية بعينها والحد من لا محدودية السيميوز ضمن سياق خاص يستدعي الانتقاء والحذف والتحجيم .

أما على صعيد النص الأدبي الذي تعد الكلمة أداته الأولى، والكلمة هي سلسلة من الممكنات الدلالية، فإن النص خاضع للتعدد القرائي إلا أن اندراجة ضمن سياق معين يختزل احتمالاته الدلالية ويوجهها ليس في اتجاه واحد بل إلى عدد مختزل من القراءات المحتملة، مع إلغاء كم كبير منها لتستقر القراءة على دلالة معينة - عند قارئ ما – من خلال المؤول النهائي.

إن المؤول النهائي لا يلغي التعدد القرائي، إنما ي حدد القراءة ويضبطها من خلال وضع الكلمات في سياق نصي معين، وعليه فإن " المؤول النهائي ليس آلة لإنتاج الدلالات و المعاني، كما أنه ليس صياغة نهائية لدلالات بعينها تعد إثباتا لمعرفة قارة . إنه على العكس من ذلك، ورغم مظهره الإنغلاقي، يشير إلى أن الدلالات متعددة تعدد السياقات التأويلية . وأن التعدد لا يوجد في الواقعة، إن كل تعدد إنما يعود إلى الذات التي تقوم بالتأويل وقدرتها على استحضار كل السياقات التي تبرر هذا التأويل وترفض ذاك ".

هذا،وإن كان السياق الواحد يستوعب أكثر من مؤول نهائي، وذلك بحسب ثقافة القارئ وقدرته التأويلية. لكنه فقط يكبح جماح المؤول الديناميكي اللامنتهي،بمعنى أن التعدد القرائي والإحتمال التأويلي يبقى قارا حتى على مستوى المؤول النهائي،لأن هذا الأخير لا يعني الفهم الأحادي للنص بالتأكيد.

V/ التأويل بين السميائيات والتفكيكية:

تكاد سيميوزيسية بورس تتشابك و تختلط مع لانهائية الدلالة التفكيكية التي تقوم على مبدأ التقويضية في لعبة تدليلية لا متناهية، مما جعل بعض الباحثين ينظرون إلى السميائيات باعتبارها اللبنة التي استندت عليها التفكيكية في بناء تصورها للدلالة، و أن سيرورة الإحالات السميوزيسية هي المهد الذي احتضن فكرة المتاهة التأويلية الدريدية . اتخذ غير قليل من التفكيكيين من فكرة السميوز البورسي مرجعا لمنطلقاتهم الفكرية و على رأسهم "جاك دريدا" الذي حاول أن يشرع للنمو اللولبي للتأويل في التفكيكية بإيجاد سلطة معرفية له في السميوزيس البورسي، وذلك في الفصل ا لثاني من كتاب De la grammatologie .

مما جعل أمبرتو إيكو يتصدى لنوايا دريدا بالنقد،مبينا أن قراءته تحيد بالنص البورسي عن أصله و عن النوايا المعلنة للمؤلف،فالسميوز كما يفهمه إيكو مبدأ للتعددية وليس تأويلا بلا نهاية،فغنى المؤول الديناميكي يتوقف على ثقافة المؤول: الدينية، الأسطورية ، العلمية، اللغوية ....،وهي لا بد أن تتوقف عند حد ما.

المتاهة الهرمسية (*)/ التعدد الدلالي:

يهدف دريدا من وجهة نظر فلسفية إلى تحدي ميتافزيقا الحضور القائمة على وجود مدلول نهائي، و البرهنة على أن اللغة قادرة على تجاوز المدلولات المحددة، و أنها لا تقف عند مدلول بعينه من خلال حركة تأويلية لولبية لاتستقر على معنى أو دلالة، و هو ما يعرف بالمتاهة التأويلية (Derive interpretation) فلا حدود و لا ضفاف للدلالة "تنتشر الإيحاءات بشكل سرطاني بحيث إننا كلما انتقلنا إلى مستوى أعلى تم نسيان مضمون العلاقة السابقة أو تم محوها. فجوهر اللذة التي تخلقها المتاهة تكمن كلية في الانتقال من علامة إلى أخرى، و لا غاية لهذه الرحلة اللولبية بين العلامات و الأشياء سوى اللذة ذاتها"[1].

فما نحصل عليه من معرفة أو دلالة في نهاية المطاف لا علاقة له بالنقطة التي انطلقنا منها في بداية التأويل، فبإمكان أي علامة أن تشير إلى علامة أخرى دون أن تكون بينهما علاقة أو رابط، و المهم هو عدم الاستقرار على معنى معين، فالعملية التدليلية التفكيكية تقوم أساسا على مبدأ التقويضية.

على عكس سلسلة الإحالات السميوزيسية التي تقود إلى إنتاج معرفة أعمق و أوسع من تلك التي تقدمها العلامة في بداية المسار، فالعلامة تحيل على علامة أكثر تطورا و غنى. " فالسميوز بطبيعتها اللامتناهية تقود المؤول إلى ترجمة علامة في علامة أخرى ضمن سيرورة تلغي من حسابها مقولة المرجع كواقع مادي، لكي تستحضر نص الثقافة الذي يعد العنصر الوحيد الذي يمكننا من إرساء نقطة نهائية ضمن تدفق دلالي لا ينتهي نظريا عند حد بعينه (...) ففي كل عملية إحالة نكون في واقع الأمر ندشن لبدايات سيرورة تأويلية جديدة، فالعلامة هي مستودع لعدد هائل من الوحدات الثقافية القابلة للتحقق ضمن سياقات متنوعة، لا إحالات سرطانية تنفي الروابط بين المنطق و نهاية الرحلة "[2] ، فالسميوزيسية إذن تعني التعدد الدلالي للعلامة الواحدة بتعدد سياقاتها، وإلى حين تجسدها في سياق خاص تظل السميوز لا متناهية.

السميوز/ التخمين :

لعل الملفت للإنتباه في سياق الحديث عن التأويلية البورسية ، أن بورس ربط العملية التأويلية بالعلامة وحدها، مع إغفال أو إهمال للذات القارئة، فالسميوز فعل معزول عن الذوات و العلامة خاضعة للسيرورة التأويلية كجزء من ماهيتها و كينونتها، فهي تتكون من المؤول المسؤول على إعطاء دلالة ما للعلامة و ربط ماثولها بموضوع حتى في غياب القارئ.

والحقيقة أن المؤول الديناميكي لا يمكنه أن يشتغل بمنأى عن القارئ الذي تزداد احتمالاته التأويلية للعلامة الواحدة بحسب ثرائه الثقافي: اللغوي، الأسطوري،الديني...، لذا أضاف إيكو مفهوم التخمين مسندا إلى القارئ دورا في عملية إنتاج الدلالات.

يقوم التخ مين أساسا على الفرضية(Abduction)، باعتباره فرضية للقراءة و التأويل، فهو "ليس ثيمة و ليس حكما مسبقا على المعنى، بل هو تصور أولي و حدسي للمعنى . إنه يمثل،عند القارئ، الأشكال الأولى لمقاربة المعنى وفق خطاطة يتبناها هذا القارئ و يباشر وفقها عمليات التأويل اللاح قة"[1]

إن التخمين هو تحيين أولي لمعنى النص بواسطة خلق مسار تأويلي معين ينظم وفقه القارئ عناصر النص، و يخلق له انسجاما خاصا بحسب زاوية نظره الخاصة . ومن ثم فإن غنى السميوز و سعته الدلالية و تناسل معانيه، متوقفة على تخمينات القارئ الذي يخلق سياقا خاصا للنص. و القارئ في الحقيقة يخلق سياقا خاصا داخل سياق عام، فالنص ذاته مندرج ضمن سياق عام يستوعب بداخله سياقات أخرى (إحتمالات دلالية) تتحدد بحسب قارئه و سعته الثقافية، فالقارئ يوجه النص في سياق معين حسب تصوره الأولي أو تخمينه أو تحيينه المبدئي، قد يقبله النص و قد يرفضه، وفي الحالة الأخيرة على القارئ إعادة تحيين فرضيات أخرى يقبلها النص و تؤيد موجهاته النصية.

وبناء عليه، فإن العلامة تشتغل وفق مبدأ السميوز بنشاطين يكمل أحدهما الآخر :

النشاط الأول: مرتبط بالبعد النفعي أو البراجماتي للعلامة . أو بالموضوع المباشر للعلامة، وذلك حين تحيل العلامة على المعنى الحرفي التقريري، الذي يحتاجه الإنسان في إطار حياته الاجتماعية للتعبير عن حاجته الأولية.

النشاط الثاني: تتجاوز من خلاله العلامة المباشرة و الموقع التعييني المباشر إلى الدلالات غير المباشرة المرتبطة بديناميكية المؤول و الموضوع م عا، لتشير إلى الضمني و لخفي والمستتر من خلال سيرورة تدليلية لا منتهية تتوقف على ثقافة القارئ و قدرته التأويلية.

ورغم قولنا بلا نهائية السميوز إلا أن حاجات الإنسان إلى التواصل، يقلص المد المتواصل لسلسلة الإحالات السميوزيسية، و يجعلها تستقر على دلالة بعينها فتدخل العلام-ة دائرة العادة والعرف، و هو بالمنظور السميائي موت للعلامة.

موت العلامة:

إن العادة تصهر العلامة بجعلها تحمل دلالة تد اولية تقوم بالوظيفة الإبلاغية والتواصلية في المجتمع، و تتحول اللغة إلى أفكار مسكوكة باتخاذ العلامة مسارا تأويليا

واحدا. والدلالة الواحدة تعني موت العلامة، ومن موتها تنبعث القاعدة و القانون و العادة، و هو موت أبدي في الخطاب التداولي اليومي، و موت مؤقت في النص الأدبي، لأن الانتهاء إلى دلالة ما من خلال سياق تأويلي ما من خلال المؤول النهائي لا يقتل النص باعتباره علامات، فسرعان ما تنبثق دلالات أخرى من النص عبر سيرورة تدليلية جديدة في سياق جديد لترسو عند مؤول نهائي آخر، و هكذا...

وعليه فقد انطلق الأمريكي بورس من خلفية فلسفية تتمثل في نظرية المقولات ليؤسس للسمياء التأويلية باعتبارها منهجا مهما في مقاربة النصوص الأدبية و استنطاق مكامنها' و هو منهج يفتح باب التأويل و تفجير شفرات النص على مصرعيه من خلال المؤول الديناميكي الذي لا يحد من جموحه شيئ' لولا المؤول النهائي الذي يحدد المعنى بحسب سياق النص.

الإحـــالات

[1]- سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل . مدخل لسيميائيات ش س بورس. ط1 .المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . بيروت . 2005 . ص 54 . نقلا عن : peirce (cs). Ecrits sur le signe . Ed Seuil. Paris 1978 . p70.

[2]- سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، د ط، منشورات الزمن ، الرباط، 2003، ص 64، نقلا عن:Peirce (cs) : Ecrits sur le signe. p 121

[3] - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 100.

[4] - أمبرتوإيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ت: أحمد الص معي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 69، نقلا عن:Charles S Peirce : To lady, edited by I Roin.c.Lieb 18

[5] - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل،ص 119، نقلا عن:.Peirce(cs) :Ecrits sur le signe.p 140

[6] - أمبرتو إيكو: السميائية و فلسفة اللغة.ص 11

[7] - أمبرتوإيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ت: سعيد بنكراد، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 119.

[8] - سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 157.

(*)-الهرمسية(Hermetisme): نسبة إلى هرمس Hermes و هو إله إغريقي متعدد الوظائف ، من بينها أنه رب البيان و البلاغة و رب المداهنة و المكر في الوقت نفسه ، يرمز إلى التعدد التأويلي و المعرفة الآتية من كل أنحاء الكون . ينظر : عماد حاتم : أساطير اليونان . ط(2).دار الشرق العربي. بيروت. حلب. 1994. ص 95.

[9] - أمبرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات و التفكيكية، ص 123.

[10] - سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 36 -37 .

[11] - سعيد بنكراد: السيميائيات و التأويل، ص 188.

المراجع

سعيد بنكراد: السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش س بورس، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2005.

سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، د ط، منشورات الزمن ، الرباط، 2003 .

أمبرتوإيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ت: أحمد الصمعي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

أمبرتوإيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ت: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقا في العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000

عماد حاتم : أساطير اليونان . ط2 . دار الشرق العربي . بيروت . حلب . 1994.